نظرات في فلسفة المعري

د. عبد الرحمن محمد الهويدي
جامعة آل البيت المفرق – الأردن

سمعنا دائما بأن أبا العلاء المعري فيلسوف الشعراء، وشاعر الفلاسفة، ولقد حاولت هذه الورقة أن تدرس هذا القول، ووصلت إلى أن المعري كان زاهدا في حياته، وكان واقعيا لا يميل إلى الخيال، انتقد العادات، وأبدى رأيه في كثير من القضايا التي ربما كانت تمثل اشكالية ما، ولم يكن لديه فلسفة بالمعنى التجريدي لكلمة فلسفة، وإنما كان لديه رأي بل آراء في قضايا المجتمع وهمومه، آمن بها، ودعا إلى حلها، واستطاعت الورقة أن تصل إلى أنه كان من كبار المفكرين، ولكنه ليس بالفيلسوف.

إذا كانت الحكمة من معاني الفلسفة [١]، فإن الحكمة قديمة في الشعر العربي، فهي موجودة في الشعر الجاهلي، في معلقة زهير[٢]، كما قد جرت على ألسنة كثيرين من الذين قطروا خبراتهم شعرا لينتفع بها أبناء قبائلهم. لقد كثرت في العصر العباسي، وتعددت روافدها الأجنبية بتعدد الثقافات التي عرفها العرب، فأخذ النابهون منهم يضيفون إلى إبداعهم من الحكم عتادا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان[٣]، وأخذوا يعتمدون على عقولهم الخصبة في استخلاص الحكمة من خبرتهم بأحوال الناس والدنيا، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تحصى حكمة بالعشرات، بل أحيانا بالمئات على نحو ما عرف عن أبي تمام والمتنبي الذي حاول بعض النقاد الوصل بين حكمة وحكم أرسطو[٤].

وقد كثر الشعر على ألسنة المتفلسفة منذ الكندي، وفي الكتب الخاصة بتراجمهم من ذلك أسراب غير قليلة، وكثيرا ما كانوا ينظمون بعض معارفهم الفلسفية أو الطبية، وكثيرا ما كانوا يعرضون للنفس والجسم والعلاقة بينهما في

الحياة وبعد الممات، على شاكلة ما أنشده أبو النفيس أحد متفلسفة القـــرن الرابـــع الهجري [٥]:

في النفس والجسم، إن فكرت، معتبر — بل دون ذلك ظل الرأي والفكـــر

وحار كل لبيب في اتحادهمـــــــا — وتلك عين وهذا حكمه الأثـــــر

ياليت شعري إذا الأبدان أضمـــرها — يد البلى وحواها الترب والمـــدر

هل للنفوس التفات نحو عالمهـــا — كما تلفت نحو المركز الحجـــر

ليحصل الفوز في دار الخلود لهـــا — وتنتفي دونها الآفات والغيـــــر

آخر الحياة الموت كما يعبر أبو تمام، فالموت يطارد الإنســـان، الحيـــاة نفسها موت فوق الأرض، أو هي غيمة كما يقول أبو العلاء المعري[٦].

إن الذي يمعن النظر في شعر أبي العلاء المعري يجد أن ذلـــك الشـــعر يكشف عن الغياب الأصلي في الحياة، فالحياة عابثة جوهريا، وليس الإنســـان إلا سقوطا متتابعا ينتظر نهايته، هكذا يستعمل المعري الموت، كأنه يرفـــض وجـــودا يحدده الإنتظار[٧].

أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي، ولد في معـــرة النعمـــان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، ينحدر من أسرة عريقة اشـــتهرت بـــالعلم والشـــعر والقضاء.

كان غزير الفضل، شائع الذكر، وافر العلم، غاية في الفهم، عالما باللغة، حاذقا بالنحو، جيد الشعر، جزل الكلام، شهرته تغني عن صفته، وفضلـــه ينطـــق بسجيته، رمي بالزندقة والإلحاد، قال فيه أبو الفرج الجوزي في تاريخه[٨]:

"زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، التوحيدي، وأبـــو العـــلاء. قـــال: وأشدهم على الإسلام أبو حيان، لأنهم صرحوا ولم يصرح"

وقال ياقوت [٩]: "كان متهما في دينه".

ويضيف الحموي[١٠]:

"والناس في أبي العلاء مختلفون، فمنهم مَنْ يقول: إنـــه كـــان زنديقـــاً، وينسبون إليه اشياء كثيرة. ومنهم من يقول: كان زاهداً عابداً يأخذ نفسه بالرياضـــة والخشونة والقناعة باليسير، والإعراض عن أغراض الدنيا.

وقال فيه ابن العماد في شذراته [١١]:

"ولعلّه مات على الإسلام، وتاب من كفرياته، وزال عنه الشك. ووصفهه العيني في عقد الجمان [١٢]: كان علامة عصره.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية[١٣]،[١٤]:

"وأصابه جدري وله أربع سنوات أو سبع، ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، فأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم خرج منها طريداً منهزماً، لأنـــه ســـأل سؤالاً بشعر يدلّ على قلة دينه وعلمه وعقله؛ ؟! قال:

تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النـــار

يدّ بخمس مئين عسجد فُديت ما بالها قطعت في ربع دينار

ولما عزم الفقهاء على أخذه بهذا الكلام هرب ورجع إلى بلـــده، ولـــزم منزله.

ويروي السيوطي[١٥] أنه لما وصل بغداد دخل على المرتضـــى، فعـــثر برجل، فقال: مَنْ هذا الكلب؟، فقال المعري: الكلب مَنْ لا يعرف للكلـــب ســـبعين إسماً، فسمعه المرتضى، فأدناه واختبره، فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذكاء، فأقبل عليه إقبالاً كثيراً[١٦].

وقال الصفدي[١٧]: "كان قد رحل إلى طرابلس، وكان لها خزانـــة كتـــب موقوفة، فأخذ منها العلم، واجتاز اللاذقية، ونزل ديراً كان به راهب له علم بأقاويل الفلاسفة، فسمع كلامه فحصل له بذلك شكوك".

ومما جاء في بغية الوعاة[١٨]: وقد اختلف العلماء في شأنه، فأمّا الذهبـــي فحكم بزندقته، وقال السلفي: أظنه تاب وأناب، وقال ابن النديم في كتابه [١٩]: دفـــع التجّري على أبي العلاء المعري:

كان يرميه أهل الحسد بالتعطيل، ويعملون على لسانه الأشعار، ويضمنونها أقاويل الملحدة، قصداً لهلاكه، وقد نقل عنه أشعاراً تتضمن صحة عقيدته، وأن ما نسب إليه كذب كقوله:

لا أطلب الأرزاق والـ مولى يفيض عليَّ رزقي

إن أعطَ بعض القوت أعـ ـلم أن ذلك فوق حقي

وقد ضمّن المعري ديوانه "اللزوميات" أو "لزوم ما لا يلزم" فلسفته، أو تفكيره الفلسفي بجميع أسسه وشعبه، وقد تكلف فيه ثلاث كلف(٢٠): الأولى: أنه ينتظم حروف المعجم كلها، والثانية: أن رويّه يجئ بالحركات الثلاث ثم السكون، والثالثة: أنه التزم مع كل رويّ فيه شيئاً لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من حروف.

ومع كل هذه الكلف أو الصعوبات، فإنه قد ضمّن تلك اللزوميات فلسفته أو تفكيره المتشائم، وهو تفكير شغل فيه بإنسان العصر، والإنسان يصبّه على الإنسان والحياة الإنسانية صبّاً دون أن يعرف أسبابه ودون أن يستطيع له دفعاً أو رداً. ويتسع به التفكير في شرور الحياة الإنسانية وآلامها، ويستولي عليه تشاؤم لا أوّل له ولا آخر، كما يستولي عليه يأس ثقيل يملأ نفسه شقاء وعناء، وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشرّ، ففيم إذن تُلقى الأبناء لها من آبائهم، وفيم الزواج وهو شرّ متصل، شرّ يؤذن دائماً بالكوارث والخطوب، وتلاحق الفواجع والنكبات ولا منقذ ولا مخلص(٢١):

وهل يأبق الإنسان من ملك ربّه ويخرج من أرضٍ له وسماء

فالإنسان أسير شرور الحياة لا يستطيع منها فكاكاً ولا خلاصاً، لذا فحريّ به ألا يتخذ ولداً حتى لا يرمي به في أتون هذه الشرور المهلكة:

هذا جناه أبي علـ ـيّ وما جنيت على أحد

ويشيع أبو العلاء المعري في أشعاره حيرة تتراءى ظلالها في اللزوميات، ممّا جعل بعض القدماء يقول: إنه كان يشك في كل شيء، حتى إنه ليتخذ الشك عقيدة له، بل ويسلطه على ما حوله، حتى على الديانات(٢٢):

هَذَتِ الحنفيةُ والنَّصارى ما أهتدت ويهود حارت والمجوس مُضَلّلة
اثنان أهل الأرض ذو عقل بـــلا دين وآخر دَيِّنٌ لا عَقْلَ لَـــه

والحقيقة أنه هنا يهجو أصحاب الديانات لزمنه لا الديانات نفسها، لأنـــهم توزّعوا فرقاً كثيرة، ولأنهم باعوا دينهم بثمن بخس(٢٣):

نادت على الدين في الآفاق طائفة يا قوم مَنْ يشتري ديناً بدينار
جنوا كبائر آثام وقد زعمـــوا أنَّ الصغائر تجني الخلد في النار

وقد سخر المعري من الصوفيين، وحمل عليهم معتبراً إياهم مخـــادعين أصحاب مظاهر زائفة(٢٤):

تزيّوا بالتصوّف عن خداع فهل رزت الـرجال أو اعتميت
وقاموا في تواجدهم فداروا كأنهم ثمـال مـــن كميـــت
وما رقصوا حذاراً من إلـــه ولا يبغون إلا ما حميـــــت

ويمضي في سخريته إلى النهاية حين يراهم بأنهم شـرّ جيـل لأنـــهم لا يفكرون في سلوكاتهم: (٢٥).

أي جيل التصوّف شرّ جيل فقل لهم وأهون بالحـــلول
أقال الله حين عبدتمـــوه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

ولقد لفتت شخصيّة أبي العلاء المعري وطريقة تزهده أنظار معاصريـه، ومَنْ جاء بعدهم من الكتاب والنقاد والمؤرخين، وربما كان طه حسين مـن أكـثر الباحثين المعاصرين فهماً لشخصية المعري وفكره، وقد سعى في كتابيه "مع أبـي العلاء في سجنه" و "وتجديد ذكرى أبي العلاء" إلى فهم فلسفة حكيم المعرة عـن طريق سبر شخصيته واستيعاب مكوناتها النفسيّة والبيئية والثقافية والفكرية.

ومما قاله د. طه حسين معقّباً على موقف المعري الزهـدي(٢٦): "وأنـا شديد الإشفاق على أبي العلاء من نفسه قبل كل شيء، وقبل كل إنسان، فلم يظلمـه أحدٌ قط كما ظلم نفسه، ولم يكلفه أحد قط من الجهد والعناء ومن المشقة والمكـروه ما كلف نفسه نحو خمسين عاماً، ولم يفتنّ أبو العلاء في شيء كما افتنّ في ظلـم

نفسه وتحميلها ما تطيق وما لا تطيق وأخذها بالمكروه في حياتها العملية والعقلية أيضاً.

فالمعري لم يكتف بالسجن الذي فرضته الطبيعة عليه حين أفقدته نعمة البصر، وإنما فرض على نفسه سجنين آخرين، أحدهما ظاهر محس يراه الناس جميعا ويشهدون ما يمكن أن يلقى سجينه من الحزن اللاذع والألم الممض، وهذا هو البيت الذي أقام فيه المعري لا يريحه وفرض على نفسه لزومه مهما تكن الظروف، والآخر سجن فلسفي تخيله كما تخيل الشعراء، واشتقه من حقائق الأشياء كما يفعل الفلاسفة.

هذا السجن الخيالي الفلسفي هو الجسم الذي أكرهت النفس على أن تستقر فيه لا تتجاوزه ولا تتعدى حدوده إلا حين يقضي عليها الموت وهي حينئذ تظفر بحرية لا تعرف كيف تقدرها ولا كيف تستمتع بلذاتها أثناء الحياة، لأن هذه الحرية مجهولة المدى، مجهولة الموضوع يثير انتظارها في النفس ألوانا من الشك وضروبا من الخوف، وفنونا من الهلع.

وقد تحامل على المعري كثير من النقاد[٢٧]، وذلك عندما قرأ بعض معاصريه أبياتا ظنوا منها أنه يؤمن بقدم المادة والزمان والكواكب وخلودها، مخالفا بذلك رأي المتكلمين المسلمين في حدوثها جميعا، وأنها ليست قديمة، فلا قديم سوى الله، وهي في واقع الأمر أبيات شبهت عليهم، من مثل قوله:[٢٨]

أرى زمنا تقادم غير فان فسبحان المهيمن ذي الكمال

وقوله:[٢٩]

يا شهب إنك في السماء قديمة وأشرت للحكماء كل مشار

فهو في البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان، مشيرا بذلك إلى أنه محدث من صنعه،، وكل ما هنالك أنه قال: إن الزمان تقادم أي تعمق في القدم، فالإحساس بطول البقاء مرتبط بنفسية الإنسان، كما جعل الشهب في البيت الثاني قديمة، ولا أظنه يقصد بالقدم في البيتين ما يناقض الحدوث الذي ناقشه المتكلمون في قضية خلق القرآن، وإنما هو يقصد ما يناقض الحداثة بشهادة قوله:[٣٠]

وليس اعتقادي خلود النجـــوم ولا مذهبـــي قدم العالـــم

فهو هنا كأنه يدافع عن اتهام سبق له، فـهو لا يقـول بخلـود الأفـلاك والكواكب والمادّة، ولا بقدمها كما كان يقول فلاسفة اليونان، فهو يقول:(٣١)

أقيم خمسي وصوم الدهر آلفه وأُدمن الذّكر أبكاراً بآصـال

ونجده دائماً يعترف بالبعث والحساب والملكين المكلّفين بتسجيل حسـناته وسيئاته:(٣٢)

قد راعني للحساب ذكـــر وغـــرّني أنـه بعيـــد

وعن يميني وعن شمالـــي يصحبنـــي حافـظ قعيـد

فهو يعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكر ونكير فيه للناس:(٣٣)

خلصني من ضنك ما أنا فيه واطرحيني لمنكر ونكيـــر

وهو يرجو عفو ربّه على ما كان منه من عمل:(٣٤)

وما أنا يائس من عفو ربـي على ما كان من عمد وسهـو

وقد ذهب بعض المعاصرين إلى أنه يتخذ العقل دائماً إماماً له(٣٥)، فهو لا يثق ولا يستسلم ولا يلقي مقاليده إلا إليه، لمثل قوله:(٣٦)

كذب الظن لا إمام سوى العقـ ـل مشيراً في صبحه والمســاء

وهو بذلك يتابع المعتزلة الذين جعلوا من العقل ركناً هاماً مـن أركـان تفكيرهم.

ويبدو المعري في كثير من الأحيان شاكاً مضطرباً، فهو يرى أن ماهيات الأمور محجوبة عنّا، ونراه يضيق بتلك الحجب، ويتمنّى لو يسـتطيع إدراك مـا عجز عقله عن إدراكه مع إيمانه بكل مقدرات العقل، فيصـرخ بعـد أن أعيـاه السؤال:(٣٧)

أما اليقين، فلا يقين، وإنمـا أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسـا

ويقول: (٣٨)

سألتموني فأعيتني إجابتكـم من ادّعى أنه دار فقد كذبـا

فمبلغ علمه الوصول إلى الظن، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بـأن كثيراً من التكاليف العقلية والشرعية، مرجعه في الاجتهاد إلى الظن.

ونراه أحياناً يؤمن بالجبر، مكرراً أن الإنسان يدخل إلى الدنيـا كارهـاً، ويخرج منها كارهاً، يقول:(٣٩)

خرجت إلى ذي الدار كرها ورحلتي إلى غيرها بالرَّغم والله شاهـــد

ولكن هذا لا يبدو أنه يمثل معتقداً حقيقاً للشاعر، فهو مؤمن بالجبر فـي الولادة والموت، أمّا الأفعال فهي من اختيار الإنسان، ويقدم على ذلك الدليل القاطع برفض أن يكون الإنسان مجبراً على ارتكاب الكبائر:(٤٠)

إن كان مَنْ فَعَل الكبائر مُجْبـــراً فعقابه ظلم على ما يفعـــل

فهو يصدر عن فكرة المعتزلة بوجوب العدل على الله، وهـو يـرى أن مذهب الإنسان هو حريّة الإرادة:(٤١)

لا تعش مجبراً ولا قدريّـــاً واجتهد في توسّط بين بينـــا

فالمعري عاش الشك ولكنه ليس الشك الرافض، بل هو الشك الموصـل إلى الحقيقة:(٤٢)

في كل أمرك تقليد رضيت بـه حتى مقالك ربى واحد أحـــد
وقد أُمرنا بفكر في بدائعـــه وإن تفكّر فيه معشر لحـــدوا
وأهل كل جوابٍ يمسكون بـــه إذا رأوا نور حق ظاهر جحـدوا

فهو يدعو الإنسان لأن يؤمن إيماناً قائماً على اليقين، ويشير إلى ما دعت إليه كثير من الآيات القرآنية الإنسان أن يؤمن بناء على التفكير الموصل لليقين.

إن رحلة المعري في الحياة كانت شاقة معذّبة، فقد عاش شقياً بطموحاته، شقياً بكبريائه، شقياً ببلوغ الأمال الكبار في معرفة الحكمـة وأسـرارها، وحيـن صدمته محدودية العقل على اتساعه، ومحدودية الطاقة البشرية على فعاليتها، ارتدّ إلى المجتمع، وغاص في كبريات قضاياه:(٤٣)،(٤٤)

يرتجي الناس أن يقوم إمـــام ناطق في الكتيبة الخرســـاء
كذب الظن لا إمام سوى العقـــ ـــل مشيراً في صبحه والمساء

فإذا ما أطعته جلب الرحـــــــمة عند المسير والإرســـاء

إنما هي المذاهب أسبـــــــاب لجذب الدنيا إلى الرؤســـاء

فالقارئ للمعري يلاحظ أنه كان فيلسوفاً إسلامياً بالمعنى الدقيـــق لـــهذه الكلمة، وقد استندت فلسفته تلك إلى تشاؤم حادّ يرجع إلى فقده بصره وهو صبـــي، وإلى ما أطبق على مجتمعه من شرور كان الحكام سببها المباشر:(٤٥)

وأرى ملوكاً لا تحوط رعيّـــــة فعلام تؤخذ جزية ومكـــــــوس

ويقول:(٤٦)

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعَدَوْا مصالحها وهم أجراؤهـــــا

فالأصل في الحاكم خدمة الناس وحمايتهم، والضرائـــب تؤخـذ مقـابل خدمات يقدمها الحاكم ورجاله للرعية ومن هنا تكون الأبيات وكأنها ثورة اجتماعية يدعو إليها المعري، كما يلاحظ القارئ للزوميات المعري أن فلسفته ترجـــع إلـــى إحساس عميق بالآلام الإنسانية مما جعله مفكراً إنسانياً عظيماً، لذا هاجم الأدعيـــاء والمنافقين:(٤٧)

توهمت يا مغرور انك ديّـــــن عليَّ يمين الله ما لك ديـــــــن

تسير إلى البيت الحرام تنّسكـاً ويشكوك جارٌ بائس وخديـــــن

فهو لا يفصل بين الإيمان الصافي النابع من المعاملة الحسنة حيث يقـول الرسول الكريم: "الدين المعاملة" و "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" و "والله لا يؤمن مَنْ لم يأمن جاره بوائقه...(٤٨)".

فالمعري لا يفصل بين الإيمان الصافي والعقيدة السمحة، ولذا فإنه هـاجم أولئك المتمسكين بالظواهر:(٤٩)

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمهـــــــا فتاركها عمداً إلى الله أقـــــــرب

إن التشاؤم يمثل سمة واضحة من سمات شخصية المعري، وربما كـــان لعماه المبكر الأثر الكبير في ذلك، لذا فإنه حاول أن يخفف على نفسه أثـــر تلــك العاهة بقوله:(٥٠)

أبا العلاء يا بن سليمـــــان إن العمى أولاك إحسانـــــا
لو أبصرت عيناك هذا الـورى ما أبصرت عيناك إنسانـــــا

ويقول:(٥١)

قالوا: العمى منظر قبيـــــح قلت: بفقدي لكم يهـــــون
والله ما في الأنام شـــــيء تأسى على فقده العيـــــون

ويقول:(٥٢)

والقوم شر فلا يسررك إن بسطوا لك الوجوه ولا يحزنك إن عبسـوا
دنياي هي لي زاد استعين بـــــه على الرحيل فإني فيك محتبـــس

إن هذا اليأس المتشح بالتشاؤم الذي يكاد يشكل سمة عامـــة فـــي شـــعر المعري يرتبط بتكوينه العقلي والفكري وبموقفه من الحياة والموت، كما هو مرتبط بتصاعد الصراعات الفكرية والمذهبية في عصره(٥٣)، تلك المعتقدات والفلســـفات التي تقفها المعري واستوعبها، فحارت به الظنون، وتناهت بـــه الأفكـــار، وكـــان نتائجها هذا الشك الموجع، وتلك الأنات الصاخبة وذلك الوجع الممض فـــي دنيـــا الأعماق المصطرعة بهواجس تخطي الواقع وتجاوز المحن إلى جانب هواجـــس البقاء الصائر إلى الموت والفناء.

ضمن هذه المعادلات انكفأ الشاعر عن الحياة مؤثرا محابسه الثلاثة التـــي جعل نفسه وروحه رهينة لها:(٥٤)

أراني في الثلاثة من سجونـــي فلا تسأل عن الخبر الخبيـــث
لفقدي ناظري ولزوم بيتـــــي وكون النفس في الجسد الخبيث

في هذه السجون المختارة وجد المعري راحة نفســـيه، ومتعـــة فكريـــة، فأطلق لعقله عنان التفكير، وتمسك بمبدأ الحرية الفكرية التي واجه بـــها مجتمعـــا بأكمله، بل عصرا بأكمله، وغدا فيه رائدا للفكر الإسلامي.

فالمعري لم يتعلق بشيء من زخارف الدنيا وزينتها، بل رفضها فيما رفض، ورفض معها متاع الأولاد والزواج لا لسبب سوى هذا الحرمان الذي كان يأخذ نفسه به، وفي ذلك يقول:(٥٥)

لوا أن بني أفضل أهل عصري لما أثرت أن أحظى بنسل
فكيف وقد علمت بأن مثلي خسيس لا يجيء بغير فسل

كان المعري برما بالحياة، فهي سلسلة آلام، لذلك هاجم فكرة الزواج، ونقم على المرأة في كثير من شعره:(٥٦)

فليت حواء عقيما غدت لا تلد الناس ولا تحبل

ويقول:(٥٧)

علموهن النسج والغزل والـ ـرد ن وخلوا كتابة وقراءة

ولعل التساؤل الكبير الذي ردده المعري على نفسه، ماذا نريد من الدنيا وهي تسوقنا إلى الموت، وتنتهي بنا إلى الفناء ؟

من هذا التساؤل نستطيع إدراك الكثير من معاني فلسفة المعري المنبثقة من تشاؤمه وازوراره من حياة معرضة عنه:(٥٨)

لا تشرفن بدنيا عنك معرضة فما التشرف بالدنيا هو الشرف
واصرف فؤادك عنها مثلما انصرفت فكلنا عن مغانيها سننصرف
يا أم دفر لحاك الله والـ ـدة فيك العناء وفيك الهم والشرف
لو أنك العروس أوقعت الطلاق بها لكنك الأم مالي عنك منصرف

فهو إذا ساخط على الدنيا لأنها أعجزته، لا لأنه زهد فيها، وفلسفته فيها إذا هي فلسفة المحنق المغيظ(٥٩)، لا فلسفة المرتفع عن الحياة ولذاتها.

ومن يتأمل شعر المعري الذي وصف بالفلسفي يجد أن كثيرا من المعاني فيه صعبة المتناول، ولربما كان ذلك لاستعمال المعري لأوابد الكلام وشواذه، ولا ضطراره إلى القوافي الغريبة للزومه مالا يلزم، ولكن تلك اللزوميات تمتاز بدقة التشابيه وروعة الحكم، أما دقة تشابيهه فلأنها وليدة خيال خصب، وحسن تعبير

عن النفس، وأما الحكم فلقد جاءت ثمرة لما في طبعه من صدق التأمل في الحيـــاة والموت.

ومما يلاحظ على شعر المعري الفلسفي اهتمامه بالألفاظ وجرسها القوي، وربما يرجع ذلك إلى اتخاذه اللغة وسيلة من وسائل التعبير والبوح عما يعتمل فـــي فكره وعقله ومشاعره، وعن طريق اللغة التي آمنوا بجدواها وفاعليتها مضوا فـــي تساؤلاتهم محاولين حل لغزها الكوني والوجودي، لذلك فإن المعري ينظـــر إلـــى اللغة وكأن هناك علاقة بين حروفها والعدد:(٦٠)

طرق العلا مجهولة فكأنهـــا صم الغدائد مالها أجـــذار

وكثيرا ما نرى هؤلاء الشعراء ينكفئون على أنفسهم متعالين عن الخوض في خضم الأباطيل ليطلوا من آفاقهم اللغوية الشامخة، فالمعري يرى الكون كـــلا لغويا والتركيب اللغوي غير نهائي، فهو كالأبدية السرمدية في اتساعها وامتدادهـــا وعمقها:(٦١)

هذي حروف اللفظ سطر واحـــد منها يؤلف للكلام بحـــار

وانظر إليه كيف يدخل اللغة في النسيج الإنساني والكوني:(٦٢)

والناس كالأشعار ينطق دهرهم بهم فمطلق معشر ومقيـــد

وقوله:(٦٣)

دنياك توجد أيام السرور بهـــا مثل القصيدة لم تذكر قوافيها

فالإنسان هو قافية الحياة في سلسلة المنظومات الانبثاقية ولـــزوم مـــا لا يلزم هو التوحد.

كان المعري أشبه ما يكون بالطبيب الاجتماعي(٦٤) الـــذي عـــرف أدواء المجتمع وحللها ووصف بعض علاجها، ولكنه لم يكن صيدلانيا يستطيع تركيـــب العلاج، وليس هذا من شأنه لأنه شاعر يعيد تشـــكيل المعـــارف الإنســـانية وفقـــا لمعطيات فكره.

كما نستطيع القول إن المعري لم يبتدع مذهبا فلسفيا، ولا نظن أنه قصد ذلك، كما أننا لا نستطيع أن نقول: إنه أخذ مذهبا فلسفيا برمته، أو اعتنق مذهبا دينيا بعينه مرة واحدة.

عاش المعري حيرة الفلاسفة وقلقهم، فكان يكثر من التساؤل، وكان في كثير من تساؤلاته أقرب ما يكون إلى اللاأدرية، فهو يرى أن ماهيات الأمور نفسها محجوبة عن إدراكنا، وأنه هو لا يدريها، ثم يعلن أن الآخرين أيضا لا يدرونها، ويتحداهم بذلك أشد التحدي:(٦٥)

سألت عقلي فلم يخبر، فقلت له: سل الرجال فما أفتوا ولا عرفوا

قالوا: فمالوا، فلما أن حدوتهم إلى القياس أباتوا العجز واعترفوا

وتتسع لديه دائرة الحيرة حين يفكر بالحياة والموت والقضاء، فيأتي سؤاله على صورة صرخة مدوية يطلقها في عنان السماء:(٦٦)

سألت عن البواكير أين أضحت وعن أهل التروح أين باتوا

وهل أرواح هذا الخلق إلا عواري المقادر لا الهبات

وما يدري الفتي، والظن جهل وأقضية المليك مغيبات

أما تساؤلاته عن النفس الإنسانية ومصيرها بعد الموت فربما حاول أن يجد لها جوابا في رسالة الغفران، ولعل أغرب ما تمخض عنه فكره في هذا المجال هو ما فرضه على نفسه من عزلة وشجون، فإذا أطال المعري التفكير في نفسه أنموذجا إنسانيا وجدها سجينه في جسمه أدخلت السجن مكرهة وتخرج منه مكرهة لم تسأل أتريد هذا الدخول أم ترفضه، ولم تستشر أترغب في هذا الخروج، أم تزهد فيه.

فالقارئ لشعر المعري يجد أن له موقفا من الحياة، حيرته تمثل موقفا وتشككه يمثل موقفا، ورأيه في الناس يمثل موقفا، أما أن له فلسفة من حيث المعنى التجريدي للفلسفة، فإنه شوقي ضيف يدحظه فيقول:(٦٧)

"ومن العجيب أن نجد مثل نيكلسون وهيار يذهبان هذا المذهب، وليس لرأيهما، ولا لمن تبعهما أي دليل على هذه الفلسفة، إلا إذا كنا نعد كل زاهد يدعو

إلىالزهد والتقشف في الحياة فيلسوفا، وزهد أبي العلاء وما يطرح فيه من نظر جرئ إلى مسائل الدين لا يكفي لنعده فيلسوفا بالمعنى اليوناني لهذه الكلمة، إنه لم يعرف عنه أنه كان مخلصا للفلسفة اليونانية على نحو ما صنع الفارابي وغيره من جماعة الفلاسفة المسلمين، وهو أيضا لم يعرف عنه أنه نمى مذهبا من مذاهب الفلسفة اليونانية".

ويذهب شوقي ضيف إلى التساؤل: "هل نباتية المعري تجعلنا نزعم أنه فيلسوف؟"

ويجيب عن ذلك بقوله:(٦٨)

"إنها طريقة في الحياة وليست طريقة في التفكير، والنباتية مذهب برهمي أتى من الهند، وقد قص علينا كل من ترجم للمعري بأنه كان برهميا، والحق أن المعري ليس فيلسوفا بالمعنى اليوناني لهذه الكلمة، إلا إذا توسعنا في معناها فجعلناها تطلق على كل من يفكر تفكيرا حرا، فيصبح كل محب للحكمة فيلسوفا".

إن المعري مفكرا حر التفكير، وكان زاهدا صادق الزهد، كان شديد التشاؤم، غير أنه لم يستطع أن يخرج من ذلك إلى إحداث نظرية معينة أو منهج معين يمكن أن نسميه المنهج الفلسفي لأبي العلاء المعري.

كان المعري طبيبا اجتماعيا عرف أدواء المجتمع وحللها ووصف بعض علاجها.

كان المعري واقعيا في تفكيره، لا يميل إلى الخيال ولا يأخذ بالظن بل يحاربهما.

ونستطيع أن نزعم بأن النقاد قد ظلموه عندما زعموا أنه آراءه سلبية، لأنه انتقد عددا من العادات، أجل فعل المعري ذلك، فأبدى رأيه في المرأة والأخلاق والحكام والدين، بل إننا نستطيع أن نزعم إن رأيه إيجابيا وعمليا في الدين، فهو يفضل العمل الصالح وحسن المعاملة على العبادات الشكلية والخرافات المزيفة.

وما دامت فلسفة المعري، في أكثرها، إنما هي استعراض ونقد وتحليل، فليس من المنتظر أن تجد في مادتها ابتكارا ظاهرا، ولكنك واجد في أسلوبها ابتكارا عظيما، إن الأسلوب الذي عالج به المعري تلك القضايا المعروفة، والمقدسة أحيانا، في هذا الثوب الشعري اللماع، وبهذا النفاذ من البصيرة النيرة، وبذلك التهكم المر اللاذع المضاف إليهما هو الذي خلق عبقرية المعري، وأحله مكانا رفيعا بين كبار المفكرين ومكانا متواضعا -لا يحتاج إليه- في تاريخ الفلسفة.

الهوامـــش :

١- د. علي عبدالمعطي محمد، المدخل إلى الفلسفة، دار المعرفـــة الجامعيـــة، الاسكندرية، ١٩٨٧، ص٣٢.

٢- عبدالحميد سند، زهير بن أبي ســـــلمى داعيـــة الســـلام، دار المعـــارف، ص١٠١.

٣- محمد مصطفى بالحاج، شاعرية أبي العلاء في نظر القدامي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٧٦، ص٧٦.

٤- الحاتمي، محمد بن الحسن، الرسالة الموضحة في ذكر شـــرقات المتنبـــي وساقط شعره، تح: محمد يوسف نجم، دار بيروت، ١٩٦٥.

٥- شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، الشام، دار المعارف،ن ص٢٣٨.

٦- أحلام الزعيم، قراءات في الأدب العباسي (الشعر) مطبعة الاتحاد، دمشـق، ١٩٩٢، ص٥١٣.

٧- أدونيس، مقدمة الشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط٣،١٩٧٩، ص٦٤.

٨- ابن الجوزي، تاريخ.

٩- ياقوت الحموي، ارشاد الأريب ١٦٢/١، ٢١٦، تحقيق احسان عبـــاس، دار الغرب الإسلامي/بيروت، ط١، ١٦٢/١،٢١٦.

١٠- المصدر السابق، ص١٦٢/٢.

١١- ابن العماد (- ١٠٨٩هـــ) شذرات الذهب في أخبار مـــن ذهـــب تحقيـــق عبدالقادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٩، ٢٠٩/٥.

١٢- بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ أهـــل الزمـــان، الهيئـــة المصرية للكتاب، ١٩٩٢، ٢٠٦/٢.

١٣- ابن كثير (-٧٤٤هـ)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩١، ٧٢/٢-٧٥.

١٤- المعري، اللزوميات،، دار صادر، بيروت، ٥٤٤/١.

١٥- جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر ط٢، ١٩٧٩، ٣١٥/١.

١٦- يوسف البديعي، أوج التحري عن حقيقة أبي العلاء المعري، تحقيق: ابراهيم الكيلاني، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٤، ص٢٧.

١٧- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، مصورة.

١٨- السيوطي، مصدر سابق، ٣١٥/١.

١٩- المرجع السابق، ٣١٥/١.

٢٠- مقدمة اللزوميات، مصدر سابق.

٢١- اللزوميات ٦٤/١.

٢٢- اللزوميات ٣٠١/٢.

٢٣- اللزوميات ٥٤٣/١.

٢٤- اللزوميات ٢٤٠/١.

٢٥- اللزوميات ٣٠٩/١.

٢٦- طه حسين، مع أبي العلاء في سجنه، دار المعارفن القاهرة ١٩٣٩، ص٣٣.

٢٧- البديعي، أوج التحري، مرجع سابق، ص٤٠.

٢٨- اللزوميات ٣٤١/٢.

٢٩- اللزوميات ٥٨٣/١.

٣٠- اللزوميات ٤٧٨/٢.

٣١- اللزوميات ٢/-

٣٢- اللزوميات ٣٣٤/١.

٣٣- اللزوميات ٦٠٢/١.

٣٤- اللزوميات ٦٣٧/٢.

٣٥- عمر فروخ، حكيم المعرة، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ص١٥٢.

٣٦- اللزوميات ٦٦/١.

٣٧- اللزوميات ٣٦/١.

٣٨- اللزوميات ١١٨/١.

٣٩- اللزوميات ٣١١/١.

٤٠- اللزوميات ٢٧٣/٢.

٤١- اللزوميات ٥٣٥/٢.

٤٢- اللزوميات ٣٢٤/١.

٤٣- مع أبي العلاء في سجنه، ص١٩٠.

٤٤- اللزوميات ٦٦/١.

٤٥- اللزوميات ٣٢/٢.

٤٦- اللزوميات ٥٤/١.

٤٧- اللزوميات ٤٩٨/٢.

٤٨- محي الدين النووي، رياض الصالحين، دار الفكر.

٤٩- اللزوميات ٨٧/١.

٥٠- قراءات الأدب العباسي، ص٥١٣.

٥١- المرجع السابق.

٥٢- المرجع السابق.

٥٣- مع أبي العلاء في سجنه، ص١٩١.

٥٤- اللزوميات ٢٤٩/١.

٥٥- اللزوميات ٢/٣٤٥.

٥٦- اللزوميات ٢/٢٨٠.

٥٧- اللزوميات ١/٦٣.

٥٨- اللزوميات ٢/١٤٨.

٥٩- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص٣٨٢.

٦٠- اللزوميات ١/٤٥٥.

٦١- اللزوميات ١/٤٦٢.

٦٢- اللزوميات ١/٣٣٩.

٦٣- اللزوميات ٢/٦١٧.

٦٤- حكيم المعرة ص٥٩.

٦٥- اللزوميات ٢/١٥٣.

٦٦- اللزوميات ١/١٩٨-١٩٩.

٦٧- الفن ومذاهبه، ص٣٨١.

٦٨- المرجع السابق، ص٣٨٢.